يحيى يخلف

البقاع ..

لوحة كبيرة على الجدار الابيض .. بحيرة حالمة ، وطيور اسطورية وامواج تنثني وتنكسر ، وقارب من خشب الصندل ، يركبه مغن وعاشقان .. وفوق الامواج غيوم بيضاء كالقطن تمتطيها نساء من الجيشا ..

أرض الغرفة مفروشة بالسجاد ، والمقاعد ذات وجوه وثيرة ، ومنافض السجائر فارغة فوق طاولات لامعة .. وجدار كامل من الزجاج يطل على دغل من اشجار التفاح .

كانت تلك غرفة الصالون ..

الشباب انزلوا اثقالهم في الغرف الاخرى ، الاسلحة والذخيرة والبطانيات ، وبعضهم ارتمى على الفراش الوثير او الارض المكسوة بالسجاد ، لشدة التعب والارهاق .

كنا ، قد نمنا ليلتين في العراء ، تحت المطر ، وتعرضنا لقصف عشوائي .

عندما وصلنا الحقل ، حقل التفاح المترامي الاطراف ، جاء نباح كلب ، فقال آمر الفصيل :

ـ لقد وصلنا .. مسافة قصيرة ونصل الفيلا .. السور عال ، ويمتد الى ما لا نهاية ، البوابة الحديدية مغلقة ، والسرذاذ يتساقط ، والصقيع يتسلل الى العظام .

طرقنا الباب . جاء نباح خافت . واطل فجأة رجل مسن ، ذو شارب معقوف . ووجه متغضن ، فابتسم اذ شاهدنا ، واسرع يفتح الباب .

مد يده مصافحا ، فيما ظل الكلب وراءه يهز ذيله بعصبية .

قال له آمر الفصيل : ايها العم .. هل تعمل هنا ؟

هز رأسه كما لو انه يعرفنا ومسح شاربه المصبوغ بالدخان واجاب :

ـ نعم ... انا حارس هذه الفيلا .

قال له آمر الفصيل : ـ انا ومجموعتي سنقيم في الفيلا لبعض الوقت .

حك الرجل المسن شعر رأسه المنكوش ، وعبس قليلا ثم قال :

ـ المفتاح مع وكيل البيك .. كيف نعمل ؟

ـ واين وكيل البيك ؟

ـ وكيل البيك هرب من بداية الاحداث .

ثم صمت قليلا ، واشار الى غرفته الصغيرة وقال :

ـ تفضلوا ، نشرب الشاي ، ونفكر .

وعندما شكرناه قال باعتداد :

ـ حضرتكم فدائيون .

هززنا له الرأس بالايجاب ، فقال :

ـ محسوبكم ابو حنا . من بر الياس .

ثم كأنما فطن شيئا

ـ ليس هنالك سوى حل واحد .. نكسر الباب .

كانت هناك مسافة ما بين البوابة الكبيرة والباب الزجاجي ، وكانت شجيرات صغيرة ، وازهار ، واعمدة ضوء صغيرة .

حطم زجاج واجهة الباب . وفتح الباب . دخلنا ، دخل ابو حنا بخطوات مترددة .

حدق بالارضية المكسوة بالسجاد ، وتردد قبل ان ينقل خطواته . وطال تردده ، فدخلت الصالة وتركته خلفي ..

تابلوه على الجدار الابيض .. بحيرة حالمة اسطورية ، وامواج تنثني وتنكسر ، وقارب من خشب الصندل يركبه مغن وعاشقان .. وفوق الامواج غيوم بيضاء كالقطن تمتطيها نساء من الجيشا .

* * *

في الغرفة الاخرى على الجدار امرأة صينية تركب على محفة يرافقها فارس يحمل علم الاباطرة ، ويندلق كرش سيد الارض في طرف الصورة ، الكرش العاري المزروع بالشعر ، المطالب باللذة الدائمة .

كان الشباب ينظرون الى الجدران ، والمرايا ، وزخرف السقف والاثاث ، والخزانة ، وهم مأخوذون ..

قبل ان ينصرف قال ابو حنا :

ـ تصدق بالله .. انني لم اضع قدمي على عتبة الباب منذ سنتين .. وكيل البيك منعني ، وقال انه سيطردني اذا مست قدمي طرف السجاد .

دعوناه على الغداء فلم يأت ، حملت له صحنا وذهبت الى غرفته في طرف الفيلا ، كان يجلس امام المدفأة .. وحوله تنطنط قطة ، وتعبث بصوف الجاعد الذي يجلس عليه ..

ـ شكرا .. نشكر الله .

قال لي ، وسكب جزءا من الطعام في علبة صفيح . وقال :

ـ وحياة الله . اني احمل هم اطعام القطة والكلب قبل ان احمل هم اطعام نفسي .

وتنبهت الى ان كلبا كبيرا يبسط ذراعيه ويغفو في زاوية الغرفة .

ـ تعيش وحدك يا ابو حنا ؟

زفر بحرقة . ونظر الى ركن الغرفة حيث يضع فوق طاولة صغير صورة للعذراء ، وصليبا مثبتا على مقطع من خشب الزيتون فيما تظهر آثار ذوبان الشمع على بلاطة مستوية السطح .

ـ أي نعم . اعيش وحدي .

واطرق يحدق بالطعام ، دون ان تمتد له يد ..

* * *

في نوبة الحراسة في المساء احضر لي كأسا من الشاي الساخن . كنت اتدثر بمعطف ثقيل . العتمة شديدة . والصقيع ينفذ الى العظام مذاق الشاي الساخن لذيذ ، ومن بعيد تأتي اصوات زخات من الرصاص .

جلس على حافة العتبة . وبدأ يمسح بيده على ظهر الكلب .

قلت له : ابو حنا .. هل تعيش وحدك ؟

ربما هز رأسه لي ، اذ لم اشاهده بسبب العتمة .. ثم سمعت صوته :

ـ لا استطيع ان أغادر ، وكيل البيك يطردني .

ـ هل يأتي احيانا ؟

ـ احيانا يتصل بالتلفون ..

ـ من هو صاحب الفيلا ؟

ـ انه مليونير من بيروت يقضي حياته بالتنقل والسفر .

ـ الا يسكنها بتاتا ؟

ـ يأتي ما مجموعه عشر ساعات في العام .. ولكن وكيله في الظروف العادية يأتي مع ...

ـ تقصد مع نساء ؟

ـ يأتي مرة في الاسبوع ..

ـ وبقية الايام ؟

ـ اظل وحيدا .. احرس اشجار التفاح . وانكش الارض .

ـ اليس لك زوجة واطفال ؟

ـ الزوجة هجرتها وليس من اطفال .

ـ لماذا ؟

ـ .....

ـ اعني ...

ـ اختلفنا .. انها لا تريد ان تحبل وتلد طفلا خوفا من الموت وكنت اريد طفلا .. كانت تخاف الموت ، وكنت احب الاولاد.. مرت سنوات طويلة ، وتحولت حياتنا الى جليد .. فذهبت الى اهلها ، ولم تعد ..

ـ وانت .. الم ترسل لها ؟

ـ كنت انتظر عودتها كل صباح .. كنت اذهب الى الطريق ، ارقب اطلالتها .. ولكنها لم تفعل .

ـ ما دمت تريد ان تعود .. فلماذا لم ترسل لها ؟

ـ اذا أرسلت لها فانني اعيش معها بشروطها .. واذا جاءت هي فهذا يعني انها تعيش معي بشروطي .

* * *

بدأ الشباب ينظفون بنادقهم ، ويمسحون مدافع الهاون .

وعلى الجدار كانت المرأة الصينية التي تركب على المحفة تبتسم للفارس الذي يحمل علم الاباطرة ، واذ ذاك عبس سيد الارض الذي يندلق كرشه العاري ، عبس كثيرا ...

وقف آمر الفصيل ، وطلب من مجموعة الاستطلاع ان تتهيأ ، وجاءت نوبة حراستي .

احضر ابو حنا الشاي وقال :

ـ سبحان الله .. حبيتك كتير .

سألني عن بلدي ، واهلي ، وزوجتي ، واطفالي . ثم تحدثنا عن الفيلا ـ القصر .

ـ صاحب القصر البيك يأتي مرات قليلة في فصل الصيف . ثم يسافر .. انه البطر .. وكيل البيك يأتي كثيرا ومعه في كل مرة امرأة تختلف عن الاخرى . كان يتصل بي تلفونيا من بيروت ويطلب مني ان افتح الشبابيك لتهوية الفيلا ، وادير المكيف . كان ذلك في الزمن الماضي ... ومنذ سنتين ، جاء ومعه امرأة ، وطلب مني ان اصنع له قهوة ، وبعد ان فرغت من امرأة ، وطلب مني ان اصنع له قهوة ، وبعد ان فرغت من صنعها جئت الى الصالون فوجدته يضاجعها على الارض .

ـ من يومها لم يعد يسمح لك بالدخول .

ـ بل انه ضربني وشتمني امامها ، ومنعني من الدخول .. في حضوره او في غيابه .

ـ كم تأخذ اجرا يا ابو حنا ؟ .

ـ آخذ خمسين ليرة .

ـ خمسين ليرة فقط ..

ـ وحياة الله .. خمسين ليرة بس .

* * *

بدأ القصف العشوائي بالقنابل المنثارية ، نصحت ابو حنا بالدخول الى غرفته .. كان وجهه ممتقعا .

سقطت بضع قذائف حولنا .

ثم ابتعد القصف .

* * *

آمر الفصيل يتصفح البرقيات التي وصلت على الجهاز . وبعض الرفاق يعدون طعام الغداء ، وثمة ابريق شاي على الطاولة ، وكاسات فارغة ، وخوذة عسكرية ، ومنافض السجائر المليئة .

وكنت ارقب المغني والعاشقين على الجدار ، وفتاة الجيشا الطرية كنبات الفطر ، والامواج السحرية التي تتثني كتسريحة حورية فوق غلاف ديوان شعر .

دخل كامل ، احد عناصر الحراسة النهارية ، وقال :

ـ اصيب كلب ابو حنا بشظية ، ويبدو أنه قد يموت .

اعتدلت ، وسألته : وابو حنا ؟

ـ حزن لدرجة لا يمكن وصفها .

استأذنت آمر الفصيل وخرجت .. كان ابو حنا يجلس امام العتبة كما لو انه ينتظر التي لن تأتي ،بينما اغمض الكلب عينيه وهو يرتجف وقد تجمدت على ظهره بقعة دم حمراء .

ـ هل الكلب بخير ؟

سألته فأجاب وهو ينظر اليه في حنو :

ـ غليت له الملح ، ووضعته على جرحه فجعل يقفز في الهواء لشدة الالم ، لكنه سرعان ما سكن ، وامتلأ بالطمأنينة وسوف يتحسن .

صمتنا ، وعادت عينا ابو حنا ، تحدقان عبر الطريق التي غابت فيها زوجته ذات يوم . كانت عيناه تحدقان كحمامتين طار لكل منها زغلول ..

وصلت سيارة الدوشكا التي شاركت في ضرب الحواجز الطيارة ، واشار لنا الشباب بأذرعتهم ، وبعد ان عبروا البوابة ، تلفت الي ابو حنا وقال :

ـ وحياة الله اني (تونست) فيكم .. قبل ان تأتوا كنت وحدي ، وجهي بوجه الحيطان .. لا استطيع ان اخرج في الليل خوفا من اللصوص . وصمت لحظة ثم قال :

ـ على ذكر اللصوص ، كنت عائدا من القرية ذات يوم .. وعلى الطريق فاجأني اللصوص ، سحبوا علي السلاح وقالوا هات ما في جيبك من مصاري ، ضحكت ، قالوا : لماذا تضحك ، قلت ابو حنا لا يحمل مصاري ، قالوا قرب ننبشك ، قربت .. فتشوني .. وجدوا معي رغيف خبز وصندوق سجائر ، وخسة .. قالوا لي لا تؤاخذنا نريد ان نعيش ، قلت لهم امشوا معي نروح الى البيت فاطبخ لكم وناكل لقمة ساخنة . قالوا : نحن لا نطمئن لاحد .. روح .. قلت لهم : ولكم يا عمي وين بدي روح بعد ان اخذتم السجاير ، لك .. اتركوا لي سجارتين بس . اعطوني سجارتين وسألوني : وين بدك تروح الان ، اجبتهم : على اوضتي .. يا عمي وين الناس بتروح غير على اوضتها ؟

وغرفة ابو حنا باردة ، لا تعج بها انفاس امرأة ، والمرأة هناك، ذهبت ذات يوم لانها لا تريد طفلا ، وابو حنا يحب الارض الخصبة .

يحي رباح

نحن في زمن الاشتباك

١٥ ـ ٥ ـ ١٩٤٨

آخر صورة ما زلت اختزنها في ذاكرتي ، ان قريتنا الصغيرة كانت تقصف بعنف من قبل العصابات الصهيونية ، وان بضعة رجال مسلحين من ابناء قريتنا ، كانوا يقفون بحذر وراء متاريس صنعوها من اكياس الرمل واقاموها حول القرية ، وكان كل شيء يوحي ان القتال سوف يتواصل لفترة طويلة .. وكان الامل العظيم معلقا بتواصل القتال ، غير ان الجنود العرب جاءوا .. استقبلهم الناس بالفرح.. ولوحلهم بقوة رجال القرى من وراء المتاريس .. ووصل الامر الى حد ان كثيرا من المحاربين أطلقوا الرصاص ابتهاجا .. وزغردت النساء وتمتم الرجال الطاعنون في السن : الحمد لله .. ولكن الذي حدث ، ان الجنود تبعا للاوامر التي لديهم ، تجاهلوا ذلك كله ، امرونا بالتراجع من القرى والمتاريس .. وضعوا انفسهم عازلا بيننا وبين العصابات الصهيونية ... وهكذا انتهت الحرب ..

وهكذا ضاعت فلسطين

وهكذا اصبح شعب كامل في العراء .

٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٦

الوضع في محور عينطورة ينفجر بقسوة ، المقاتلون الصامدون فوق التلال .. تلفريك .. بسكنتا .. صنين .. وعينطورة .. يتعرضون منذ الثالثة فجرا الى موجات متعاقبة من الهجوم من قبل العصابات الانعزالية .. سد من نيران المدفعية ينهال فوق رؤوسهم وهم في مواقعهم العارية ... دبابات وآليات تتقدم .

اوقفنا الجنود عند الطرف الاول للحاجز الذي اقيم في الطريق قبيل شتورا

ـ قف

ـ انا فدائي

ـ قف

ـ المعركة على اشدها .. انهم يهاجموننا بقسوة ..

ـ قف

اهانات .. كلمات بذيئة .. ضرب ... احتجاز حتى صباح اليوم التالي .. وجاء من يعتذر

ـ ان النوايا حسنة

ـ ولكن المهمة قذرة .

كان الحادث الاول في زمن الضياع

ونحن الان في زمن الاشتباك

وعبر ثمانية وعشرين عاما ، صعد شعبنا

ـ ابو حنا .. هل أنت مبسوط ؟

ـ مبسوط مش مبسوط .. نشكر الله على كل حال .

ـ وكيف ترضى خمسين ليرة فقط ؟

ـ الخواجة وكيل البيك ابن ملعونة طلبت مرة منه زيادة فهددني بالطرد .. لك وين بدي روح اذا طردني ؟

ـ بلاد الله واسعة .. تشتغل في أي عمل اخر .

ـ انا طول عمري ناطور .. ولدت ناطور وبموت ناطور ..

*** * ***

هبطت الاميرة عن المحفة ، نظرت الى الرجل الذي يحمل علم الاباطرة وقالت له لا تغادر مكانك ، وسيد الارض ذو الكرش العاري حاول ان يلحقها ، فقرأت عليه تعاويذها وحولته الى تمثال .

وفتح لها الخواجه وكيل البيك ذراعيه واحتضنها .فأشاحت فتاة الجيشا بوجهها ، وغطس القارب بالمغنى والعاشقين ولكنه لم يغرق .

وهجم الخواجة على صدر الاميرة ، فتمنعت . وعضعض شحمة اذنها ، فانفردت ، وفتحت له مصراعيها .

وجاء ابو حنا يحمل صينية القهوة ، فاندلقت على ثيابه لحظة ان شاهد ...

وقام الخواجة فركل ابو حنا ، وصفعه ، وشتم امه ، فبكى ابو حنا لانه لا يملك ولدا ، واذ ذاك استيقظت من لحظة تفصل بين الحلم واليقظة ، استيقظت والعرق يتصبب من جبيني ، ذهبت الى المغسلة الفاخرة وغسلت وجهي ، وحملت البارودة على كتفي وخرجت .

كان ابو حنا في الخارج ينظف جرح الكلب بقطعة شاش ، يحنو عليه بمهارة ، حييته .. فحياني وهو مقطب الجبين .

سألته : أراك مغموما .. ما الامر ؟

اجاب : تلفن لي وكيل البيك ، وقال انه سيطردني اذا حدث شيء للقصر .. لك يطردني يلعن ابوه وابو يلي بيشد على ايده .

كان الغضب يتشبأ على ملامحه ، يتجمع .. يتحول الى قبضة الى كتلة من الوهج .

ـ انه يعطيني خمسين ليرة .. طز .. لو بعت علكة سأحصل على اكثر من ذلك .

ثم التفت الى الطريق التي يديم اليها النظر والتي ينتظر عبرها عودة التي قد تأتي وقال :

ـ عندما يأتي الخواجة وكيل البيك ، سأقول له ياخواجه انت تعطيني خمسين ليرة .. طز في الخمسين ليرة .

سيقول لي امش ياابن الـ... سأقول له انا مش ابن الـ... انت ابن الـ ... سيرفع يده ليصفعني ، سوف امسك يده ، واقول له : هيدي ايدك بكسرها مرة ثانية ، واذا عدت وعملتها فسوف اقوصك بالجفت .

قال ذلك ، ونظر الى البارودة المعلقة على كتفي .

«فلسطين الثورة» البيروتية
٥ شباط ١٩٧٦